بدوي الجبل شاعر المحبة والحرية والانتماء القومي

د. محمود السيد

يعدُّ الشاعر بدوي الجبل «محمد سليمان الأحمد» قامة شعرية شامخة في أدبنا العربي الحديث، ولقد كانت شخصيته متعددة الجوانب، ومتنوعة الأطياف، وغنية بالرؤى والتطلعات، وهذا ماجعل شعره متميزًا في مضمونه، وساميًا في قيمه، ورائعًا في ديباجته. ونحاول في هذا البحث الموجز الوقوف على إيمانه بالمحبة ديدنًا له وشعارًا وسلوكًا وممارسة، وإيمانه بحرية الفكر والتعبير مبدأً ومنطلقًا إلى الحياة العزيزة الكريمة، وعلى انتمائه القومي وتعلقه بالشام قبلةً له ومحجًا، وعلى تفاؤله بانتصار الشعب وبقاء الأمة.

فتح الشاعر عينيه على المحبة:

فتحت عيني على حبٍّ صفا وزكا فصنته لضياء العين إنسانا

وآمن أن في الحب الخير والجمال، وأن ثمة تلازمًا لا انفصام فيه بين الحب والنور:

وآمنت أن الحب خيرٌ ونعمةٌ ولا خير عندي في وغى وحروبِ

وآمنت أن الحب والنور واحدٌ ويكفر باللألاء كلُّ مريب

ومن هنا كانت نفسه صافية كالغدير في منأى عن أي ضغينة أو كراهية، وهو القائل:

يشهد الله ما بقلبي حقدٌ شفَّ قلبي كما يشفُّ الغدير

وأكد أن بناء الأمم إنما يقوم على المحبة، وشتان بين المحبة والحقد، بين الجنة والنار:

وما بُنيتْ إلا على الحبّ أمةٌ وما عزَّ إلا بالحنان زعيمُ
ولا فوق نعماءِ المحبةِ جنةٌ ولا فوقَ أحقادِ النفوسِ جحيمُ
ويا ربّ قلبي ما علمتَ محبةٌ وعطرٌ ووهجٌ من سناك صميمُ

ولئن كان يجمع بين المحبة والحنان فما ذلك إلا انسجامٌ مع طبيعته وجبلته القائمةِ على كليهما:

طبعيَ الحبُّ والحنانُ فما أعرف للمجد غيرَ حبي طريقا
لا أريدُ الإنسانَ إلا رحيمًا باختلافِ الهوى وإلا شفيقا

وما أروع ذلك التعاطفَ وتلك المشاركةَ الوجدانية التي يبديها الشاعر تجاه المعذَّبين والمتألمين! وما أسماه من حب ينتظم العالم بأسره! وهل ثمة أبلغ من قوله:

وأنا الذي وَسِعَ الهمومَ حنانُه وبكى لكل معذّب ملتاح
أشقى لمن حمل الشقاء كأنما أتراحُ كلِّ أخي هوىً أتراحي
ووددت حين هوى جناحُ حمامةٍ لو حلَّقتْ من خافقي بجناح
حبٌّ قد انتظم الوجودَ بأسره أسد الشرى وحمامةَ الأدواح

وهذا مايذكرنا بمنهجية الحب لدى الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الذي وسع حبه الوجود بأسره.

ولئن كان الحب منطلقًا له ومنهجًا في حياته فإن الحرية هي الأخرى منطلق وغاية وهدف، فيرى أن:

سبةَ الدهرِ أن يحاسبَ فِكْرٌ في هواه وأن يُغَلَّ لسانُ

ولقد شارك المتنبي في رؤيته أن الرأي قبل شجاعة الشجعان، وأن الفكر يجيء في أولوية الأولويات لإصلاح الأمور، فها هو ذا يرى أن:

الكون في أسراره وكنوزه للفكر لا لوغًى ولا لسلاحِ

وأنه:

لا تصلح الدنيا ويصلح أمرها إلا بفكر كالشعاع صُراح

وأن الفكر هو الذي يضيء الدروب، ويملأ الكون سناءً إذ يقول:

إذا ملكوا الدنيا على الحرّ عنوةً ففي نفسه دنيا هي العزُّ والكبرُ

وإن حجبوا عن عينه الكون ضاحكًا أضاء له كونٌ بعيدٌ هو الفكرُ

ومن هنا كان احترامه للفكر والرأي الصراح، وكانت ثورته على الطغاة المستبدين، واصمًا إياهم بالجبناء:

والظلمُ من طبع الجبانِ وكلُّ طاغيةٍ جبانُ

كما يرى أن الضحى والشجاع حلفا كفاح، وأنه ما احتمى بالظلام إلا الجبان، وأن النصر للشعوب لا للطغاة لأن الشعب هو القوي، أما الطاغية المستبد فهو الضعيف:

كل طاغٍ – مهما استبدَّ – ضعيفٌ كل شعبٍ – مهما استكان – قديرُ

وهب الله بعضَ أسمائه للشعب، فهو القديرُ وهو الغفورُ

لقد آمن بقوة الشعب. ومن هنا كانت دعوته للحكام إلى أن يرجعوا إلى شعوبهم مصارحة ومحبة وتحنانًا:

ارجعوا للشعوب يا حاكميها لن يفيد التهويل والتغريرُ

صارحوها فقد تبدَّلت الدنيا وجدَّت بعد الأمور أمورُ

وتنطلق رؤيته من أن الفرد لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يبقى، أما الشعب فهو المستمر، وهو الباقي إلى جانب الحق والدهر:

أرى الفرد لا يبقى وإن طال حكمه ويبقى بقاءَ الحق والزمن الشعبُ

ومع إيمان شاعرنا بقوة الرأي وقوة الحق:

وما أكبرتْ نفسي سوى الحق قوة وإن كان في الدنيا لها النهيُ والأمرُ

فإنه يدعو في الوقت نفسه إلى أن يكون المرء قويًا حتى يصون حقه، لأن الحياة للأقوياء، فينادي أحبته:

أحبابنا لا تضعُفوا فالضعف داعية الفناء
وتعلَّمُوا أنّ الحَيا ة وصَفْوها للأقوياء

وأن شريعة القوة هي المسيطرة على ممر الدهور وتوالي العصور، ويظل الأقوياء مرهوبي الجانب:

هذي الحياةُ لمن مضى كالليث مرهوبَ الجوائح

ويرى من استقراء مسيرة البشر عبر التاريخ أن شريعة الحياة هي إلى جانب القوي لا الضعيف:

ضلّ الذي زعم الأنام عن القديم تقدَّموا
الناسُ في كل العصور كما علمتَ هُمُ هُمُ
يشقى الضعيف ويستبد به الكميُّ المعلمُ
وتحلّل الأطماع ما تختاره وتحرّمُ

وما كانت الحياة إلا مطواعًا للأقوياء، مادام للقوة الأمر والنهي:

الشرع ما سنَّ القويُ بسيفه فلسيفه التحريمُ والتحليلُ

وإذا ما انتقلنا إلى الانتماء القومي لدى شاعرنا فإننا نجد أنه قد آمن بالعروبة انطلاقًا من إيمانه بالحق والخير والجمال، وهو القائل «من أراد العروبة إيمانًا في قلبه وفناءً في حبه، وأنسًا في وحشته، وهناءة في سريرته، وعالمًا في وحدته، فليتقرب إلى نعمتها بالحق والخير والجمال» على حدّ تعبيره.

وأشاد بالدور الذي اضطلع به المسيحيون في خدمة الفصيحة لغة القرآن

الكريم والموحدة بين العرب، فوقفوا إلى جانبها في محنتها، وحافظوا عليها في الأديرة، وكان ثمة تعاضد وتكاتف بين الأذان والناقوس في تعزيز روابط الوحدة الوطنية وحماية اللغة العربية إذ يقول:

صانت مسوحُكُم الفصحى وكان لها منكم بمحنتها الأركان والعمدُ
مَرَّت بأديرة الرهبان يغمُرُها شوق البنين وحبٌّ مترَفٌ رَغِدُ
لم يخذلوا لغة القرآن أمَّهُمُ وكيف يخذل قربى كفّه العضدُ
تعانقت مريمٌ فيه وآمنةٌ وحنَّ للرَّشد الإيمان والرَّشدُ

وندّد الشاعر بالمؤامرات التي تعرضت لها العربية الفصيحة، وما كانت لتتعرض لها إلا لأنها عامل توحيد بين العرب، وأفضل أم برة بهم، وأب حان عليهم، وما أجمل إيمانه بانتصار الفصيحة على المؤامرات التي تحاك لها:

للضاد ترجع أنساب مفرَّقة فالضاد أفضل أمٍّ برَّةٍ وأبِ
تفنى العصور وتبقى الضاد خالدةً شجًى بحلقِ غريبِ الدارِ مغتصبِ

ولئن أشار شاعرنا إلى الروابط القومية التي توحد بين العرب متمثلة في اللغة فإنه لم يغفل الإشارة إلى التاريخ معتزًا بالمناقب الرفيعة للفتوحات العربية ومستذكرًا المقولة المشهورة: لم يعرف التاريخ فاتحًا أرحم من العرب، فلنستمع إليه يقول عن العربي:

أريحيٌّ تكاد تورق بالنعمى لأعدائه القنا والنصولُ

ولقد تغنى شاعرنا بالأرض العربية إلى جانب تغنيه بالفصيحة والتاريخ مؤكدًا أن سالف الشرق، مِلك قحطان وأن اليوم لقحطان، وأن له الغد المأمول، ويتابع قائلاً:

وله هذه الجبال المنيفات وتلك الرُّبا وهذي السهول

ثم يعدِّد بعض المناطق العربية معتزًا بهويتها:

أرزُ لبنان أيكةٌ في ذرانا والفراتان ماؤنا والنيلُ
ورياحيننا على تونسَ الخضراءِ خضراءُ أين منها الذبولُ؟

ومع تنوع المناطق العربية وأقاليمها يبقى بيت العروبة قبلة الشاعر:

بيتُ العروبة حين أسجُدُ قبلتي لا طورُه قصدي ولا عرفاتُه
من بعض أسماءِ العروبة أرزُه يوم الفخار ونيلُهُ وفراتُهُ
كالروض ملتفَّ الخمائل ناضرًا ما ضرّه لو نُوّعتْ أزهارُهُ

ولكم كانت تسوؤه رؤية الحدود الفاصلة بين الأقطار العربية، انطلاقًا من إيمانه أن الأرض العربية هي أرض الوطن العربي الواحد الموحد. ومن هنا كان دعاؤه الحار بأن يهدِمَ الله هذه الحدود المصطنعة:

ليس بين العراق والشام حدٌّ هَدَم الله ما بَنَوا من حدودِ

ويرى أن الأرض العربية على امتدادها واتساعها إنما هي وطنه الذي به يعتز:

كل الربوع ربوعِ العرب لي وطنٌ ما بين مبتعِدٍ منها ومقترِبِ

ولذلك كان يرى أن الخلاف بين الأشقاء العرب مدعاة للغرابة والاستنكار:

للخلف في الناس أنواع وأغربها خلف الشقيقين من قومي بلا سببِ

وأن الأمر الطبيعي هو الاتحاد بين الأشقاء، أما الأمر المستكره فهو الشقاق:

لبنان والغوطة الخضراء ضمهما ما شئت من أدب عال ومن نسبِ
ما في اتحادهما تالله من عجبٍ هذا الفراق لعمري منتهى العجبِ!

وما أشبه اليوم بالبارحة، لقد عتب على لبنان تصرف بعض بنيه في

الخمسينيات تجاه سورية وإظهارهم العداء لها، وها هو ذا قلبه يتمزق أسىً من مثل هذه التصرفات المعادية فيقول:

ضاق لبنان بي وكان رحيبًا وتترّى حقدًا وكان رفيقا
ما للبنان رحت أسقيه حبي وسقاني مرارةً وعقوقا
قد أرادوا لبنان سفحًا ذليلاً وأردناه شامخًا مرموقا

ويبين الشاعر أن الشام لم ولن تحمل بين جوانحها إلا الحب الصافي للبنان، وأن هذا الحب كبير وواسع يسمو فوق الجراح، ولا يشوبه مَنٌّ ولا أذى.

وما أسمى تعبيره عن هذا الموقف المبدئي الثابت الذي وقفته وتقفه سورية تجاه أهلنا في لبنان ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً:

عروبة الشام يا لبنان صافية سمحاءُ كالنور لا مكرٌ ولا عقد
تنزّه الحب عن مَنٍّ وعن نكدٍ وقد ينغِّص حسن النعمة النكدُ
نحن المحبين نهواكم ونؤثركم هل كان من دلّلوا القربى كمن وَأَدُوا
نحن الظماءَ ونسقي الحب أرزكم الحب في الشام لا نزرٌ ولا ثَمَدُ

لقد ندّد الشاعر بالأعمال التي قام بها الاستعمار الفرنسي في سورية، ومن منا ينسى تلك القصيدة الرائعة التي نظمها الشاعر في تبيان أساليب المستعمرين الفرنسيين وأعمالهم إبان احتلالهم لسورية والتي مطلعها:

يا سامر الحيّ هل تغنيك شكوانا رقَّ الحديد وما رقّوا لبلوانا

ومما يقوله فيها:

سمعتُ باريس تشكو زهو فاتحها هلاّ تذكرت يا باريس شكوانا
عشرين عامًا شربنا الكأس مترعةً من الأذى فتملَّي صِرْفَها الآنا

وتغنى الشاعر بشهداء الوطن وبرموز الثورة السورية على الفرنسيين

وبرجالات الحركة الوطنية، من أمثال سلطان باشا الأطرش وإبراهيم هنانو وسعد الله الجابري وشكري القوتلي وفارس الخوري...وغيرهم.

وحمل شاعرنا الهم القومي في فلسطين، فعبّر أيما تعبير عن ذلك الجرح النازف من جسم الأمة، وأبان مأساة اللاجئين الفلسطينيين تحت الخيام قائلاً:

الخيام الممزقات وأم في الزوايا وكسرة وحصيرُ
وفتاةٌ أذلها العري والجوع ويلهو بالرمل طفل صغيرُ
كلما أنَّ في الخيام شريدٌ خجِل القصرُ والفِراش الوثيرُ

كما صوّر الأعمال الإجرامية التي يقوم بها العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة من حيث الحرق والإبادة والتدمير:

يحرُقُ المدن والعذارى سبايا وصغيرٌ لذبحه وكبيرُ
دينه الحرق والإبادة والحقد وشتمُ الأعراض والتشهيرُ
صوّرته التوراة بالفتك والتدمير حتى لَيَفْزَعَ التصويرُ

وثمة حقيقة يراها في التلازم بين مجد العروبة ومجد الشام، فإذا اعترى مجد العروبة في الشام خطر فالخطر كل الخطر على العرب كافة:

إذا ظل مجد العرب في الشام سالما فمجدُ بني قحطان في الشرق سالمُ

ومن هنا كان تعلّق الشاعر بالشام وتقديره لمكانتها وموقعها على الساحة العربية، وحنينه الدائم لها إذ إنها قبلته، وإن الله عزّ وجل يغفر له إن صلى والشام قبلته فيقول:

ويا ربّ إن صليت والشام قِبلتي فأنت غفور للذنوب رحيمُ
تهلَّل عفو الله للذنب عندما أطلَّ عليه الذنب وهو وسيمُ

وجميل جدًا قوله:

تطوّحني الأسفار شرقًا ومغربًا ولكنّ قلبي بالشآم مقيمُ

وما أرقه من قول:

لقد زعموا أني بجلّق هائمٌ أجلْ، والهوى إني بجلّق هائمُ

ولكم كان يحن إلى الشام في غربته فيناديها:

يا شام يا لدة الخلود وضمَّ مجدكما انتسابُ
من لي بنزر من ثراك وقد ألحَّ بي اغترابُ
فأشمه وكأنه لَعَس النواهد والملابُ
وأضمُّه فترى الجواهر كيف يكتنز التراب
هذا الأديم شمائل غرٌّ وأحلامٌ عذابُ
هذا الأديم أبي وأمي والبداية والمآبُ
ووسائدي وقلائدي ودمى الطفولة والسِّخابُ
أغلى عليَّ من النجوم ولا أُلام ولا أُعابُ

إذا كان شاعرنا المبدع يتسم برقة المشاعر ونبل الأحاسيس وسمو القيم وروعة البيان فإن الحكمة تزين تلك السمات كافة، والحكمة هي أصفى رحيق يقطّره عقل الإنسان، ومن حِكَمه:

قد تطول الأعمار لا مجد فيها ويضم الأمجاد يومٌ قصيرُ

ويرى أن المجد الحقيقي هو الذي يُبنى على المكابدة والمعاناة والمشقة والصعوبات:

لصغار النفوس كانت صغيرا تُ الأماني وللخطير الخطيرُ
يندر المجد والدروب إلى المجـ ـد صعابٌ ويكثر التزوير
علموا أنه عسير فهابو هـ ولا بدع فالنفيسُ عسيرُ

كما يقول:

قل لمن يحسد العظيم ترفقْ إن خلفَ الأمجاد همًّا وسُهدا

وما أروع حكمته في الدعوة إلى القوة والتضامن:

فقل لضعيفٍ راح يسأل رحمة رويدك ما للضعف في الناس راحمُ

وقل للذي جافى على القرب أهلَه رويدك تقوى بالخوافي القوادمُ

وما أعمق حكمته في بث التفاؤل في نفوس أبناء الأمة عندما يشير إلى أن المحتلين والغزاة لا محالة زائلون:

سألوني عن الغزاة فجاوبتُ رياح هبّت ونحن ثبيرُ

سألوني عن الغزاة فجاوبتُ رمالٌ تُسفى ونحن الصخورُ

سألوني عن الغزاة فجاوبتُ ليالٍ تمضي ونحن الدهور!

لقد اتسم شعر البدوي بالخلود، لأنه كان الناطق بلسان التاريخ والعالم، باتجاه إنساني انطلاقًا من إيمانه أن وظيفة الشعر تتمثل في الدفاع عن إنسانية الإنسان في هذا العالم، وأن الذين حملوا مشاعل المثل الإنسانية اندلعت شعلاتهم من وهج التفكير والشعور، انسجامًا مع الرغبة الدائمة للتعبير بطريقة تغني قيم الخير والجمال، وتوضح الحقيقة تخليدًا للمعاني الروحية والعاطفية وصولاً إلى خلود العبقرية الإنسانية.

فالدهر مِلْكُ العبقرية وحدها لا مِلكُ جبّار ولا سفّاح

ومعذرة منك أيها الشاعر الكبير إذا كنت لم أتمكن من إيفائك بعض حقك، ولتسمح لنا أن نستعير من دررك هذا البيت لنستشهد به على تقصيرنا تجاه الإحاطة بفكرك:

واعذر إذا لم أوف مجدك حقه لجج الخضم طغت على السبّاح